

ذكريات رمضانية (6): مع القاضي الأديب الشيخ علي الطنطاوي



الأحد 10 مايو 2020 02:43 ص

هذا الحديث عن رمضان، وفي رمضان النور والعطر وفي رمضان الخير والطهر، وفي رمضان الذكريات الكثيرة، ففيه نزل الذكر وفيه ليلة القدر وكان فيه نصر بدر وفي آخره عيد الفطر، ورمضان نور على المآذن ونور في القلب ورمضان صوم عن الطعام وصوم عن الدراما.

إن كانت الحياة تنازعًا على الحياة فهذا الشهر إدراك لسر الحياة، وإن كان العمر كله للجسم فهذا الشهر للروح، وإن كانت الدنيا للتناحر والخصام فهذا الشهر للحب والولائم.

هذا هو رمضان الذي أبصرت وجهه من كوة الطفولية فأحببته ورأيت أثره الخير في كل مكان في دمشق، فأكابرته ثم لم أعد أراها أبدًا، فتعلمت أنني قد افتقدتها وأضاعتها.

رمضان الذي عرفته لم يعد يتطرق إلى دمشق، إن هذا رمضان جديد، يحمل اسم رمضان الأول الذي رأيته أول مرة منذ أكثر من أربعين سنة ولكنني ليس ذلك إلا "رمضان".

رمضان القديم كان يغمر أرجاء دمشق كلها، فكنت تحس به حينما سرت، تراه في المساجد الممتلئة بالمحليين والغارقين والمتحلقين حول كراسى المدرسین، وتراه في الأسواق فلا تجد عورة بادية ولا منكراً ظاهراً ولا مطعماً مفتوحاً ولا مدخناً ولا شارباً، وتشتري البضاعة وأنت آمن من الغش والغبن؛ لأن أفسق البائعين لا يغش في رمضان، والمرأة تعمل مطمئنة أنها مهما أخطأت فلن تسمع من زوجها كلمة ملام، لأن المسلم الصائم لا يشتمن، ولا يلوم في رمضان، والرجل يجيء إلى بيته وهو آمن من أن زوجته تكذب أو إساءة لأن المرأة الصائمة لا تؤذى زوجها في رمضان، ولو تركت بابك مفتوحاً لما دخل المنزل لص، لأن اللصوص يضربون عن العمل ويتوبون عن السرقة في رمضان.

أما رمضان الجديد فلا تعرفه هذه الشوارع الجديدة والأحياء الحديثة ولم يعرف بعد الطريق إليها، ودمشق القديمة لم يعد يستطيع أن يسيطر عليها، فالمساجد مملوكة بالمفطرين والصائمون تسوه أخلاقهم في رمضان من الجوع وشهوة الدخان والشياطين تصعد في رمضان لكن الفساق ينطلقون عاملين فيه كما كانوا يعملون قبل رمضان.

في ساعة الغروب

ولقد كان أشد الناس بعداً عن الدين إذا سمع مدحِّر رمضان تاب وأناب إلى الله، وزع نفسه اللثمة واستبدل بها نفساً زكية متَّبعة، كما ينزع ثوبه الوسخ ويستبدل به ثوباً نظيفاً، والبيوت التي كان يسودها الخصم تحول في رمضان إلى دور أمن وسلام والمدينة تصير كلها أسرة واحدة أو مدرسة داخلية يأكل الناس فيها بوقت واحد ويقومون في وقت واحد.

إذا دنت ساعة الغروب رأيت الناس جمِيعاً - مسرعين إلى بيوتهم، هذا يحمل صحن الفول المدميس، وهذا يحمل الجرادق والبرازق، تكون المائدة منصوبة حتى إن أفق الناس يجد في رمضان فطواً شهياً، لأن كل صائم في رمضان يتقدّم جيرانه ومن حوله، فلا يأكل هو الطعام الطيب والألوان الكثيرة وجاره لا يجد الخبز والجبين.

وتصطف الأسرة كلها حول المائدة يجمعها شعور واحد، شعور يجمع الغني والفقير، والأمير والأجير، هو الجوع، أغنى الناس يشتهي قبل المغرب معلقة من حساد أو رشفة من شراب.

والآولاد يقفون على الشرفات أو على جوانب الطرق، فإذا رأوا مصباح المئارة أو سمعوا المدفع صاحوا بنغمة موزونة ولحن موقع: أذن أذن أذن...وطاروا إلى بيتهم كما تطير العصافير إذا أعيشها إذا رأت طلائع الليل، وتخلو الطرق وتختف الأصوات ثم ترتفع من كل مكان: من الكوخ ومن القصر على السواء، كلمة الحمد لله، كلهم شبع وكفهم رضي وكفهم شكر..الذي أكل السبعة ألوان والذي أكل الخبز والفول!

ثم يمضي الرجال إلى المساجد ليصلوا صلاة التراويح أو يصلوها مع أهليهم وأولادهم وتكون الأسواق مضاءة ويكون الآولاد مزدحدين فيها على بائع المثلجات إن كان الوقت صيفاً أو بائع الفول النابت. ومن أراد لهوا لم يجد إلا الحكواتي يقص قصة عنترة وكلها بطولة ونبيل لا كهذا القصص اللاثمة الداعرة.

فإذا مضت ساعة بعد صلاة العشاء، انطفأت الأضواء ودخلت الأسواق وانصرف الناس إلى دورهم ليناموا، والمسحر لا يجيء إلا في وقت السحور، لا يجيء نصف الليل ليوقظك من نومك ويقزع بطباته رأسك، كما يفعل الآن، وأنت مجبر أن تقول له أشكرك، وتدفع له أجرته على أنه كسر دماغك وحطمت أعصابك ولم تكن هذه الإذاعات التي لا تنسكت لحظة في رمضان.

إن رمضان لا يستطيع أن يعيش إلا في المهدوء والسكون، فكيف يعيش في هذه الضجة الهائلة؟ وكيف يتوجه إلى ربه؟ وكيف ينام ليقوم إلى السحور؟ إذا كان كل صاحب راد: (أي: رادي) لا يسمع وحده، بل يسمع أربعين جاراً، وكانت الأصوات لا تقطع طول الليل، والمسحر يجيء من الساعة الواحدة وهو لاله الموسيقيون الفاشلون الذين عجزوا عن أن يكونوا رجال فن، فأسبغوا على غنائهم ثوب الدين، والدين يبرأ منهم وتغلوا بالرسول (صلى الله عليه وسلم) بدأاً من التغزل بليلي وسلمي، والبياعون يأتون من طلوع الشمس، مصلح البوابير وبيع الحليب والذي عنده سجاد للبيع، والآولاد الذين يتذدون الحارات ملصعب للكرة.

ملك وشيطان

وكيف يشعر بوجود رمضان من يركب الترام فيجد أمامه من يدخن وينفخ في وجهه الدخان، ويري المطاعم مفتوحة والأكملة بأكلون، ويري الناس إن صاموا عن الشراب والطعام، لا يصوم إلا القليل منهم عن الكذب والغش والغيبة والبذاءة والحلف بغير الله، أو الحلف كاذباً بالله، ولا يصوم إلا القليل عن الغضب والبطش والأذى، وليس الصيام - في الحقيقة - إلا تدربياً خلقياً ليس الصوم جوغاً وعطشاً فقط، خلق الله ملائكة وخلق شياطين، وخلق وحوشاً وسبعاً.

فالملك خير كله والشيطان شر كله، والسبع طبعته البطش لولاه ما عاش، وخلق الإنسان من الثلاثة جميعاً، ففي الإنسان ملك وشيطان وسبعين، الملك له الإيمان والرحمة والطاعة والخشوع والطاعة والشيوع والنفس والسمو النفسي والشيطان له الشهوة المحرمة والكذب والاحتياط والإفساد والسبع له الغضب والبطش والقهـر.

والصيام في الحقيقة صيام عن السبعية والشيطانية لتخلص النفس في هذا الشهر للملكية فإذا لم تظهر على الصائم أخلاق الملائكة وإذا بقي يغضب ويبطش السبع ويشهي ويفسد كالشيطان فإنه لم يعرف حقيقة الصيام.

لقد كان رمضان الذي يجيء دمشق من أربعين سنة رمضان حقيقة وما أدرى أمات وجاء غيره أم قد شاخ وعجز عن أن يطوف دمشق كلها فصار يثبت وجوده في المفكرة والتقويم وفي أضواء المآذن ومدافع القلعة فقط لا غير، أم أنا الذي تغيرت وتبدلـت؟ كنت أنظر قبل أربعين سنة بعين صبي لم يقترب إثماً فكنت أرى رمضان فلم أثقلت الآثام أخفاني لم أعد أراه.

وكان أهل دمشق في مثل طهارة الأطفال لم تشوه أصياغ الحضارة طبيعة الحسن في نفوسهم، ولم تفسد العصبيات جمال الأخوة بين أفرادهم ولم تكن قد هتكـت أستار الصيانة ولا مزقت براقع الحياة كانت المرأة لزوجها ولولها وربها، والرجل لزوجته ولولـه وربـه، فكانوا يرون رمضان كلهم، يرون هلالـه في الأفق ونوره في القلب، وأثره في البيوت والأسواق والمدارس والمساجد، يشعرون - حقاً - أن قافلة العمر كانت تمشي بهم في صحراء مجدهـة، فإذا كان رمضان مشـتـ في الواحة، فيكونـ من ذلك أنسـ للنفس وراحةـ للروحـ.

قلب مقيد

فأين ذلك رمضان؟ أين هو؟ دلوني عليه أجد فيه ماضيـ الذي فقدـتهـ، وأنسـيـ الذي أضـعـتهـ، رمضانـ الذي يتـوبـ فيهـ كلـ عـاصـ، ويـتصـلـ فيهـ كلـ منـقطـعـ، ويـشهدـ فيهـ كلـ محـجـوبـ، وـتسـطـعـ فيهـ الأنـوارـ فيـ كلـ قـلـبـ، حتىـ لـتـمـتـلـيـ بالـرـضاـ وـالـإـطـمـئـنـانـ وـالـحـبـ، وـيـقـومـ النـاسـ فيـ الـأـسـحـارـ ساعـةـ يـتـجـلـيـ اللهـ عـلـيـ الـوـجـودـ تـجـلـيـ الرـحـمـةـ وـالـغـفـرـانـ، وـيـنـادـيـ المـنـادـيـ منـ السـمـاءـ: أـلـدـ منـ سـائـلـ فـأـعـطـيـهـ، أـلـدـ منـ مـسـتـغـفـرـ لهـ، فـيـهـتـفـونـ منـ أـعـماـقـ قـلـوبـهـ؛ ياـ أـرـاحـمـ الـراـحـمـينـ، وـيـسـأـلـونـ اللهـ وـيـسـتـغـفـرـونـهـ، فـيـحـسـونـ أـنـهـمـ قدـ صـدـعـواـ بـأـرـواـحـهـمـ إـلـىـ حـيـثـ يـرـوـنـ الـأـرـضـ كـلـهـاـ وـمـنـ عـلـيـهـ ذـرـةـ تـجـولـ فـيـ هـذـاـ الـفـضـاءـ، وـيـتـذـوقـونـ أـعـظـمـ الـلـذـاتـ، الـلـذـةـ الـتـيـ لـتـقـارـبـهاـ لـذـةـ الـإـتـصالـ بـالـلـهـ، وـمـنـاجـاتـهـ فـيـ سـكـنـاتـ الـلـيـلـ، وـهـدـأـتـ الـأـسـحـارـ فـتـسـطـعـ أـنـوارـ الـإـيمـانـ فـيـ كـلـ قـلـبـ، وـيـمـلـئـ بـالـرـضاـ وـالـإـطـمـئـنـانـ وـالـحـبـ، وـالـقـلـبـ كـالـنـسـ الـذـيـ يـخـربـ بـجـنـاحـهـ فـيـ طـبـاقـ الـسـمـاءـ، وـلـكـنـاـ قـيـدـنـاهـ بـقـيـودـ الـمـاطـعـ وـالـشـهـوـاتـ، فـكـيفـ يـطـيرـ نـسـرـ مـقـيدـ الـجـنـاحـ عـارـقـ فـيـ الطـيـنـ؟

هـذـاـ هـوـ رـمـضـانـ! فـحـلـواـ الـقـيـودـ عـنـ قـلـوبـكـمـ وـاـغـسـلـوهـاـ مـنـ أـوـضـارـ الـحـمـاءـ الـتـيـ غـمـسـمـوـهـاـ فـيـهـاـ، وـدـعـوهـاـ تـرـفـعـ لـتـطـلـعـ عـلـىـ جـمـالـ الـوـجـودـ وـتـرـىـ مـنـ هـذـاـ الـمـرـقـبـ العـالـيـ جـمـالـ رـمـضـانـ.*

* حدث إذاعي للشيخ علي الطنطاوي رحمه الله أذيع في إذاعة دمشق عام 1975.

